لقد حيّرني حقاً أمرُ الفنجان الآخر. ولكي أخفف الضغط على أعصابي لمعرفة مَنْ شاركني احتساء القهوة، تشاغلتُ بقراءة الخطوط المتشابكة في قعر الفنجانين: أشكال غريبة لطيور تحلّق في فضاءات واسعة، كلاب أو ثعالب، وجوه مشوهة، طرقٌ متعرجة مغلقة النهايات وأخرى مفتوحة على فراغ، أرقام، عيون، خطوط غير واضحة. وبدأتُ فعلاً أتسلّى بنسج الحكايات ومن ثم بتصديقها: الفضاء المفتوح يعني زوال الغمة؛ الرقم ثلاثة يعني زوالَ الغمة بعد ثلاثة أيام، أو ثلاثة شهور؛ الكلاب أعداء يتربّصون، وفي مثل حالتي لا بد أن يكونوا لصوصاً يتحينون الفرصةَ لسرقة امرأةٍ وحيدة، امرأةٍ لا تتذكر مَنْ شاركَها احتساء القهوة؛ و...

تحركتْ أكرةُ الباب بطريقةٍ مألوفة. ومع ذلك تلبّسني رعبٌ حقيقي. وضعتُ فنجان القهوة في الصحن والتفتُّ صوب الباب.

كان جسدي يرتعش حين انتصبتْ أمامي قامةُ رجلٍ أسمر اللون مربوع القامة. ألقى تحيةَ المساء بطريقةٍ آليةٍ من دون أن ينظر إليّ. وقبل أن يدخل غرفةَ النوم طلب مني فنجان قهوة!

بغداد

قالَها... ومات...

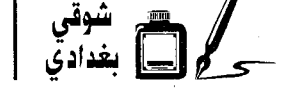

شوقي بغدادي

ما كدتُ أسمع الخبر حتى قَفَزَتْ إلى ذهني على الفور تلك الملاحظةُ التي كان يكرّرها أمامي في الآونة الأخيرة: «هل تصدّق أنّه من الممكن أن يموت الإنسان لمجرّد أن يتلفّظ بجُملةٍ معيّنة فتُنْقَل عنه ويُثْبت أنّه قائلها؟!» فأقول له ممازحاً: «وما هي هذه الجملة الفظيعة التي يمكن أن تكون سبباً في موت قائلها؟!» فيلتفت نحوي مجيباً وهو يغتصب ابتسامةً لا تُسعفه: «كيف تسألني أن أقول لك ما هي تلك الجملة؟... أنت تريدني أن أموت إذن؟». وما أكاد أتفرّس في وجهه المكتنز الطيّب الملامح وهو يجاوبني بهذا الشكل حتى يتملكني نوعٌ من الفزع الغامض حين أكتشف أنه جادّ في حديثه كلّ الجدّ، وأنْ لا مجال للممازحة والدعابة معه في تلك اللحظة.

حَدَثَ هذا أكثر من مرّة. وبالرغم من أنني كنتُ له صديقاً مُقَرَّباً، فقد كان يبدو لي مؤخراً إنساناً غامضاً، متوجساً، حَذِراً حتى مني أنا شخصياً.

لقد تغيّر صديقي كثيراً في الأشهر الأخيرة، وصار ميّالاً إلى الصمت والانطواء على النفس، مسكوناً بحالة من الكآبة طالما استفسرتُه عنها بلا جدوى. ما الذي كان يمنعه من مكاشفتي وأنا رفيق صباه، وابن قريته؟ لقد كان على ما يرام طوال السنوات العشر التي مرّتْ علينا بعد انتقالنا إلى العاصمة؛ كان دائماً ذلك الريفيُّ الطيّب النقيّ السريرة، النظيف القلب واليد بالرغم من تقلّبه في أكثر من منصب حسّاس. فهل كان يُخفي عني سرّاً ما مُخجلاً أو مفزعاً طوال تلك المدّة؟ لقد كان تغيّره واضحاً. نكون وحدنا مثلاً في سيّارته الخاصّة الفاخرة. هو يقود، وأنا إلى جانبه أتأمّل الطريق صامتاً، وهو مثلي صامتٌ مشغولٌ بعالمه الداخلي، ثمّ فجأةً - ومن دون أن يلتفت - يقول ملاحظته تلك وقد اكتسب وجهُهُ أماراتٍ من الشرود والتفكير العميق المشوب - كما يبدو - بخواطر مثيرةٍ للريبة والقلق تجعله شاحب اللون بعض الشيء: «كلمة واحدة... جملة واحدة يمكن أن تجلب الموتَ لصاحبها!. هل هذا معقول؟!»...

كان يقولها وكأنّه يحدّث نفسه، وكانت ملامحه تتغيّر تماماً عندئذ، وحين ألحّ عليه أن يَشْرح لي قصدَه على وجه الدقّة كان يتهرّب من الإجابة ويغيّر الموضوع فوراً أو يعمد إلى الصمت. وهكذا تعوّدْتُ ألاّ أُصِرَّ عليه، وبالتالي ألا أَحْمِل ملاحظته تلك على محمل الجدّ.. إنّه يتوهم أشياء لا وجود لها.. هذا كلّ ما في الأمر.. أو هو يمزح على طريقته، وعليّ ألاّ أعبأ بما يقول.

ولكنني دفعةً واحدة، وكمن يسقط عليه وَحْيٌ خطير مفاجئ، عدتُ إلى نفسي بعد سماعي خبر حادث السيّارة الذي أودى بحياة صديقي كي أستعيد تفاصيل ذكرياتي معه، وأناقشَ المسألة من خلالها فأتساءل: ترى هل كان مصرعه نتيجةً لاصطدام عاديّ، أم أنّها حادثة مدبّرة بذكاء عقاباً له على عجزه عن كتمان تلك الجملة اللعينة التي كان يعتقد أنها ستودي به؟

*

بقي الأمر بالنسبة إليّ سرّاً، حتى بعد فراغنا من تشييع الجنازة الضخمة التي نُظّمتْ له، وحَضَرَها عددٌ لا يُستهان به من المسؤولين. سألت أولاده عن تفاصيل الحادثة فلم يستطع أحدٌ أن يؤكّد شكوكي. قالوا إنّ كلّ ما يعرفونه هو أنّ أباهم كان يسوق سيّارته «المرسيدس - الشبح» عائداً إلى بيته بعد زيارةٍ قام بها إلى أحد معارفه في الضواحي ولم يكن معه أحد. وعند مدخل المدينة حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل اصطدمت السيّارة بعمودٍ للكهرباء صدمةً قويّة كانت كافيةً لحدوث ما حدث.

قلتُ لهم: «ولكنّ الوالد كان سائقاً ماهراً، ولم يكن يعمد إلى السرعة إلاّ في حالات نادرة وفي الشوارع العريضة

الخالية.. وحتى لو فرضنا أنه تناول بعض المشروب، فأنا أعرف جيّداً أنه لا يُسرف في الشراب؛ بل إنّ وعيه كان يزداد انتباهاً حين كان يشرب قليلاً كعادته. هل فحصتم الجثّة»؟

فأجابوا بأنهم لم يفعلوا ذلك لثقتهم بأنّ الحادثة لا يمكن أن تكون لذلك السبب، وأنها مجرّد قضاء وقدر قد ينزل بأمهر السائقين.

كانوا يقولون لي ذلك بلهجة محايدة جازمة، بل وَحَذِرَةٍ كمن يودّ اختصار النقاش حول هذا الموضوع بأسرع ما يمكن من الوقت.

*

مرّ على الحادثة أكثرُ من شهر حين اتّصل بي أكبرُ أولاد صديقي بالهاتف يطلب منّي أن أسمح له بزيارتي، فرحّبتُ به على الفور من دون أن أسأل عن السبب. شعرتُ بأنني أشتعل فضولاً وترقّباً، مع أنه كان من الممكن أن تكون زيارته غير ذات علاقةٍ بموضوع مصرع أبيه. وقد صَدَقَ حدسي مع أوّل نظرة تبادلناها حين وصل إلى بيتي، إذْ ما إن اختلينا الواحدُ بالآخر حَسْبَ طلبه حتى أخرجَ غلافاً كبيراً مُغْلقاً سلّمني إياه قائلاً: «وجدناه بين أغراض الوالد في المكتب مدسوساً في درج بعيد عن التناول».. فاختطفتُ الغلاف منه اختطافاً، فوجدتُ اسمي مخطوطاً عليه بحروف كبيرة مع عبارة «أمانة تُسلَّم باليد»، فأوشكتُ أن أفضّه على الفور لولا أنني تماسكت وشكرته على حسن تصرّفه، ثمّ وعدته أن أتحدّث معه حول محتويات الغلاف فيما بعد. وهكذا انصرف الشاب تاركاً إيّاي وحدي مع أبيه.

بلى.. مع أبيه.. إذْ ما كِدتُ أفضّ الغلاف وأسحب الأوراق التي كانت فيه حتى سمعتُ صوتَ صديقي الأجشّ يخاطبني ووجههُ البشوش يتأمّلني في الأوراق المكتوبة بخطّ يده. كانت رسالة موجّهة إليّ شخصيّاً، كتبها صديقي كما تبيّنتُ من تاريخها قبلَ الحادثة التي أودتْ بحياته بأسبوعين.

كانت الرسالة أشبه ما تكون بمونولوج داخلي أَحَبَّ صديقي أن يُشْركني فيه، فلم يتوجّه إليّ بالخطاب إلاّ في مقاطع قليلة في مطلع الرسالة وخاتمتها فقط. وكانت تتألّف من عشر صفحات من القطع الكبير، مخطوطةٍ بعناية من دون أية علامةِ شطب؛ وهو ما يدلّ على أنّه كتبها بهدوء كامل، أو أنّه صاغها أوّلاً في مسوّدة ثم نسخها على هذه الأوراق متأنّياً.

قرأتُ الرسالة أكثر من مرّة في جلسةٍ واحدة، ومع ذلك لم أفهم تماماً ما كنت أودّ فهمه. كان يتحدّث عن معاناته في الأشهر الأخيرة عقب تسلُّمه منصبَ المدير العام لإحدى مؤسّسات القطاع العام الكبرى، واكتشافِهِ عمقَ الفساد المتفشّي آنذاك في إدارة المؤسّسة، وعجزه عن إصلاح الأحوال فيها.. مشيراً إلى الوظائف الأخرى المشابهة التي تسلّمها من قبل والتي عانى فيها ما عاناه من متاعب وإغراءات بالحصول على مكاسب كبرى مقابل غضّ النظر عن بعض التجاوزات.

كان يكتب كمن يتكتم على بعض أسراره. غير أنني فهمتُ من بين السطور أنّ صديقي اضطرّ لتقديم بعض التنازلات، وأنه متورّط بمعنى من المعاني في أحداثٍ لم يكن راضياً عن أدائه فيها. وفي الصفحات الأخيرة تحوّلتِ الكتابةُ إلى ما يشبه الأنينَ الذي يَصْدر عن إنسان مطعونٍ مُهدّدٍ؛ ومنها قوله:

"لن يصدّقني أحد، فلقد غدوتُ إنساناً مشبوهاً، مع أنني لست على الصورة التي أرادوا أن أبدو فيها. يا إلهي.. مَنْ يفهمني الآن؟ وإلى أين تمضي بي هذه الطريق التي انفتحتْ أمامي على سعتها وأهوالها ولم يعد ممكناً أن أتراجع عنها؟ والآن ما جدوى أن يرفع أحدُنا صوته بالشكوى ما دمنا نحن الذين نصنع القسط الأكبر من الآلام التي نعانيها؟ أنا إنسانٌ محكومٌ عليه، وليس الموت الجسدي ما أخشاه وإنما هو الموت المعنوي، لا لشيء إلاّ لأنّني لم أتقن بَعْدُ فنَّ المراوغة مع الموت، ولأنهم جبّارون قساة وأقوى منّي بكثير"...

وفي ختام الرسالة يتوجّه نحوي بالخطاب قائلاً:

"يا صديقي الأوحد! هل تذكر سؤالك إيّاي عن معنى الملاحظة التي كنتُ أبديها أمامك عن الموت الذي يُمكن أن يداهمنا بسبب جملة نقولها علناً؟ لا بدّ أنك تذكر. لقد رفضتُ دائماً أن أجيبك على استيضاحك إيّاي حول المعنى الحقيقي لما كنتُ أقوله لك، حتى صارت المسألةُ أشبه بدعابة فَقَدَتْ طعمها، أو بوَهْمٍ نتلذّذ باجترارِه كي نعذّب أنفسنا دون طائل. وربّما لهذا السبب لم تَعدْ تسألني ماذا أعني. فهل آن الأوان كي أجيبك على سؤالك، وأقول لك ماذا يعني على وجه الدقّة أن تكون حياةُ الإنسان معلّقةً على كلمة يقولها، فإذا فعل فاقرأ على روحه الفاتحة؟ لقد قلتُ يا صاحبي أخيراً تلك الكلمة لمن يزعجهم سماعُها، في ساعة طيش، أو صحوةِ ضمير، أو جنون.. لا أدري.. ولكنني قلتها واسترحتُ.. وها أنذاك منذ ذلك اليوم أترقّب حدوثَ شيء صاعق يغيّر مجرى حياتي تغييراً كاملاً أو يقطعُه تماماً. لقد بدأتُ أشمّ منذ ذلك الحين رائحةَ دخان البوادرِ التي تنبئ بالمصير المحتّم. كلُّ العيون، كلّ الكلام، كلّ الحركات، كلّ الإجراءات.. كل شيء بدأ يتغيّر من حولي تحضيراً للنهاية المرسومة. فماذا عساني أصنع وإلى أين المفرّ؟ إنني أكتب لك ما أكتب لا لأنقذ نفسي — فلقد فات الأوان على ذلك — وإنّما لكي أشكرك على وفائك لي حين لم يُبْدِ أحَدٌ رغبتَه في الاستماع إلى بَوْحي سواك..".

وهكذا يختم صديقي رسالتَهُ وكأنه يرتاح من عناءٍ مُضْنٍ، طالباً مني أن أكتم سرّه حفاظاً على حياة الآخرين، ولم يقل حفاظاً على حياتي أنا. وإلاّ فلماذا لم يوضّحْ بكل صراحة ـ حتى في تلك الرسالة الخاصّة والشبيهة بالوصيّة ـ فحوى العبارة التي قالها والتي يعتقد أنها يمكن أن تودي بحياة قائلها؟ ولنفترض جدلاً أنه فعل، فهل كان في إمكاني أن أقولها مثله؟!

دمشق

خَلّفتُ صخبَ المدينة وأدرانها ورائي، وأتيتُ أنْشد رحابةَ البحر وصفاءه. فقد شعرتُ، عصرَ ذلك اليوم، وأنا أجوب شوارعها باحثاً عن عمل، أنّ طرقاتها قد ضاقت وأخذتْ بناياتُها الشاهقة تُطْبِق عليَّ من الجانبين. حاولتُ أن أتنفس في عمق، بيد أنّ الأمر تعذّر، كما لو أنّ الهواء أمسى مادةً صلبة ثقيلة لا يتسع لمرورها أنفي. وقفتُ على قارعة الطريق، وأجَلْتُ بصري، فتبدّتْ لي الدُورُ تدور حولي والأرضُ تمور تحت قدميّ. وسرعان ما أخذتْ حباتُ العرق تتحدر على جبيني، ثم تجتاح جسدي المحمومَ كله. تلفّتُ حولي فلم أر في الشارع إلا سياراتٍ تتلاحق مسرعةً وهي تُطْلق أبواقَها المدوية وتنفث دخاناً أسودَ من مخلّفات وقودها. وتراءى لعينيَّ ذلك الدخانُ وهو يرتفع في الفضاء فيلتقي دخاناً أسودَ آخر تلفظه مداخنُ المصانع، ليتجّمعا في شكل غمامةٍ كبيرةٍ تخيِّم على المدينة برمّتها، واضعةً حداً لحركة الهواء وحاجبةً نورَ الشمس عن الأزقة اللزجة. وألفيتُ نفسي، بعد برهة، خارجاً من المدينة، مارّاً بشوارعها الخلفية العارية من الأشجار، وأحيائها التعيسة ذاتِ المواخير القذرة وبيوتِ الدعارة السرية، والروائح الكريهة المنبعثة من أكوام القمامة وفضلاتِ الكلاب السائبة والمتبنّاة، وأنا أُسرِعُ الخطى مهرولاً صوب البحر.

*

جلستُ على ربوة عالية تتوسط حقلاً من الحقول المطلّة على البحر. ورحتُ أُنقّل بصري من خضرة الوهاد المحيطة بي إلى زرقة ماء البحر المترامي موجاً حتى الأفق، حيث انتشرتْ أشلاءُ الشمس الغاربة وهي تَرْحل إلى عالم آخر تشيِّعها بعضُ الغيوم الداكنة. وراح فكري يتأمل أحوال المدينة وتتردد فيه حكاياتُ والدي وذكرياتُه عنها عندما كانت، إبّان طفولته، امتداداً لتلك الحقول المزهرة والبساتين النضرة، لا يُسمع فيها إلا تغريدُ الطيور ومزاميرُ الرعاة؛ غير أنّ معاول التوسّع الكاسح اغتالت أشجارَها واجتثّتْ جذورَ نباتاتها، فتلاشتِ الخضرةُ، واختفتِ العصافيرُ، ولم تعد الغيومُ تسحّ أمطارَها فوقها، وإنما تمر مسرعةً عليها ولا تتوقف عندها.

لم يكن ثمة ما يعكّر صفوَ ذلك المساء. فالنسيمُ رائق، والبحرُ ساجٍ، وأمواجُه تنساب برقةٍ لترتمي في أحضان رمال الشاطئ الناعمة. راح بصري يتنزّه في الأثير اللاحب ويستحمّ بارتياح في زرقة الماء. وبتواطؤٍ مع البحر، سَرَتْ في أعماقي رويداً رويداً أمواجٌ من الارتياح والهدوء تتناغم مع هديره الخافت، ولفّني المساءُ بنسماته المنعشات، وأنستني غيماتُهُ العابرات، فشعرتُ شيئاً فشيئاً بالانتعاش، وغادرني دواري.

*

في ذلك الفضاء المتسع الخالي، وأنا وحيد على ربوتي العاليةِ، النائيةِ عن المدينة، المرتفعةِ عن البحر، الغارقةِ في سكون المساء، لا أدري أيّ إحساسٍ غريبٍ جعلني أفزّ وأدير رأسي بتوجس إلى الخلف، مثلما يَفْزع جوادٌ ويصهل وهو على بُعدِ عشراتِ الأميال من هزّةٍ أرضيةٍ داهمة. حدّقتُ في الفراغ. رسوم بنايات المدينة ما زالت قائمة، وإنْ بهتتْ ألوانُها بفعل تحوّلاتِ ضوء النهار، وضجيجُ مصانعها قد أتت عليه المسافةُ الفاصلة بيني وبينها، وما عدتُ أتبين على البعد سوى دخانها المتصاعد دوماً. بيد أني أبصرتُ أربعة رجال قادمين من المدينة يحثّون السير في اتجاه البحر. ظننتهم أوّلَ وهلةٍ خارجين في نزهة على الشاطئ؛ فقد كان أوّلُهم يضع يديه وراءه. وبلا إرادة مني شُدَّتْ أهدابي إليهم وتعقّبهم بصري بتلقائية. وكلما اقتربوا لاحت لي هيئتهم مُتّضحةً أكثرَ فأكثر. فتبينتُ أنّ الرجل الذي يسير في المقدمة يرتدي ملابس مدنية، ويداه مقيدتان الى الخلف، والثلاثة الآخرون يحيطون به وهم يلبسون زياً موحداً خاكيَّ اللون. ولَفَتَ انتباهي أنّ قامة الرجل المقيَّدِ اليدين تميل الى الخلف وهو يسير بصورة متقطعة. وكان الثلاثة الآخرون يدفعونه دفعاً ويُرْغمونه على مواصلة السير.

كانت وجوه هؤلاء حادةَ التقاطيع متسمِّرةً متصلبةً إلى الأمام في اتجاه البحر. أما الرجل الأول الموثوق اليدين، فقد كان يتلفت يمنةً ويسرةً، كما لو كان يبحث عن شخصٍ أو شيء ما. وهكذا بانتْ لي أساريرُ وجهه: جبهة ناصعة، وعينان تشعان نوراً، وملامح لم يَنَلْ من طلاوتها العنتُ، ولم يحجبْ روعَتَها المصابُ. وجهٌ مشرق محبوب. وقلت في نفسي: «هذا وجه أعرفه، هذا وجه ألفته منذ طفولتي». ولكني في تلك اللحظة لم أستطع أن أتذكر اسمه. كنت ألقاه في القرية حيث نشأتُ، وأصادفه في المدرسة حيث تعلمتُ، وأشاهده في المدينة حيث اشتغلتُ، ولكن لم أعد أتذكر اسمه. كان وجهُهُ الحنون يستهويني في صغري، وما زلت أهواه في كبري؛ فوجهه قريب من قلبي، حبيب إلى روحي، وجهه له طعمُ التمر